فلسطينيّو سوريا في ثورتها

◻ قيس مصطفى ❖

كانت سهرة على سطح أحد بيوت مخيّم خان الشيح (٢٢ كيلومترًا إلى جنوبيّ دمشق). كان الشباب يحتسون خمرتَهم عندما اتفقوا على أنّه ينبغي ـ من دون تقصير ـ أن تكون لمخيّمات الفلسطينيّين في سوريا حصانتُها وحمايتُها. لكنّ نظرةً إلى الأفق، في ذلك الليل المفعم بأصوات القذائف المنهمرة على المناطق المجاورة، كانت تقول: إنّ هذا السواد الذي يعمّ الآن سيَشمل حياةَ الجميع.

كان السوريّون قبل ثورتهم يهولهم منظرُ طفلٍ فلسطينيّ يواجه دبّابةً بحجارةٍ يملأ بها جيوبه. وكانوا يتبرّمون من إصرار الفلسطينيّ على انشغالاته العامّة. ولطالما أخذوا عليه جدّيّته وصرامته. الأهمّ أنّ الفلسطينيّ كان، للسوريين، رمزًا، مجرّدَ رمز، للإعجاب أو للذمّ. لم يكن مستقلًّا في تحديد هويّته، بل كان الآخرون يؤطّرونه باستمرار، ويصنّفونه في تصنيفاتٍ شتّى، معظمُها لا يرتقي إلى ما يطمح إليه في تصوّره لذاته، ذاتِه شبهِ المقصاة عن القرار الفلسطينيّ، أو عن الفاعليّة الفلسطينيّة التي تبدو أكثر نضجًا في فلسطين المحتلّة والمخيّمات اللبنانيّة.

❖ شاعر فلسطيني. وقد كُتب هذا المقال قبل تعرّض مخيّم اليرموك للقصف الجوّي وهجرةِ معظم سكّانه في الأسبوع الثالث من كانون الأول ٢٠١٢.

وكان يُنظر إلى الفلسطينيّين اللاجئين في سوريا على أنّهم «عملاء» للبعث السوريّ. بل إنّ تنظيمات فلسطينيّة كبيرة انشقّت عن الجسم الفلسطينيّ بهمّة المخابرات السوريّة، وهي التي تعكّر صفوَ الفلسطينيّين وانسجامهم مع المحيط السوريّ في هذه الأيّام... هذا إنْ جاز استخدام كلمة «صفو» في الحديث عن لاجئين يعيشون في بلادٍ مشتعلة.

أنهى الشبابُ سهرتَهم من دون طمأنينة؛ فالمخيّمات الفلسطينيّة في سوريا متروكة لمصيرها، ولا أحد يسأل عنها. يتذكّر فلسطينيّو سوريا الكابوسَ الذي عاشه اللاجئون الفلسطينيّون في العراق عشيّة الاحتلال الأمريكيّ. كما يتذكّرون سيلَ المجازر التي لحقتْ بهم حين لم يكن هناك مَن يحميهم. أمّا عند الحديث عن أحوالهم هنا، في ظلّ ثورة الشعب السوريّ، فإنّه لا بدّ من الوقوف عند حوادثَ مفصليّةٍ شكّلتْ نقطَ تحوّلٍ في السلوك الفلسطينيّ خلال هذه الثورة.

الحدث الأوّل: انخراطُ فلسطينيّي مخيّم درعا في دعم الثورة السوريّة. في بداية هذه الثورة، عمل عامّةُ الفلسطينيّين، وباتفاقٍ وجدانيٍّ مضمر، على التزام الحياد إزاء مجريات الصراع، الذي كان محصورًا بين متظاهرين سلميّين سوريّين وقوّاتِ الأمن السوريّ الموغلة في القتل. وقد التزموا الحيادَ في البداية مع أنهم كانوا يعرفون كيف تاجر النظامُ السوريّ بقضيّتهم، أسوةً بكلّ الأنظمة العربيّة، وكيف جهد في فصلهم بعضِهم عن بعض من خلال اختراق المخيّمات بالمُخْبرين (قد يمنحهم بعضَ الامتيازات مقابل مجرّد الوشاية بفتًى يضع ملصقًا لشهيدٍ على أحد جدران المخيّمات)؛ كما أنّهم كانوا يعرفون كيف استخدم هذا النظامُ اسمَ فلسطين لأشرس فروع المخابرات (كان «فرع فلسطين» هذا، وما يزال، من السوء بحيث كاد بعض السوريّين والفلسطينيّين أن يكفروا بفلسطين نفسها. وقد تهكّمتُ ذات مرّة بأنّنا عندما نعود إلى فلسطين سنستحدث فرعًا للمخابرات ونسميّه «فرع سوريا»). وعلى مستوى التصوّر الشعبيّ السوريّ المعلّب، كان الفلسطينيّون جزءًا من منظومة «الممانعة» التي ابتدعها النظامُ السوريّ، وكانت هناك خشيةٌ من أن ينحاز الفلسطينيّون إلى النظام السوريّ.

لكنّ مخيّم درعا كسر ذلك التصوّر، وذلك باشتغال أبنائه في أعمال الإغاثة وإيواء الناشطين السوريّين، وهو ما حقّق للفلسطينيّين رصيدًا وافرًا من الاحترام في مجريات الثورة. وستصير هناك «وحدةُ حالٍ» بين سكّان درعا وأهل المخيّم، الذي هُدم لاحقًا وشُرّد أبناؤه (أسوةً بما حصل لاحقًا لمخيّم الرمل في اللاذقيّة، ومخيّم حمص). هنا بدأ الغمام يتبدّد، وبات واضحًا تموضعُ كثير من الفلسطينيّين إلى جانب الشعب السوريّ.

الحدث الثاني: زجُّ النظام السوريّ ببعض الشباب الفلسطينيّ في مواجهة الإسرائيليّين على حدود الجولان السوريّ المحتلّ. فبتاريخ ٢٠١١/٥/١٥ اندفع مئاتُ الشباب الفلسطينيّين إلى التضحية بأرواحهم، مدفوعين بالحنين إلى فلسطين، وبالرغبة في إثبات الجدارة، فاقتحموا تلك الحدودَ. وهو ما فاجئ الجميع، بمن فيهم المخابراتُ السوريّة التي سهّلتْ وصولَهم إلى حدود الجولان المحتلّ، وهي مَنْ كانت تمنع (حتى قبل فترة قريبة) الجميعَ من الوصول إلى تلك التخوم التي تقبع خلفها فلسطين.

كان النظامُ السوريّ قد أوصل إلى إسرائيل رسائلَ مفادُها أنّ «أمنها من أمن سوريا.» وللبرهان على هذه الفرضيّة سمح للفلسطينيّين بالوصول إلى نقاط التماسّ مع فلسطين المحتلّة. ورغم معرفة كثير من الفلسطينيّين بأخطار اللعبة، فإنّهم ذهبوا إلى الحدود في ذكرى النكبة، وحقّقوا نصرًا معنويًّا كان يَلْزمهم في مواجهة شعورهم بالعجز والإحباط نتيجةً للمناكفات الفلسطينيّة الداخليّة والتهميش الذي أصابهم من السلطة الفلسطينيّة. ساد في تلك الفترة شبهُ إجماع فلسطينيّ على أنّه لا ينبغي معاودةُ الكرّة، إلا أنّ شخصيّات وتنظيمات فلسطينيّة موالية للمخابرات السوريّة والإيرانيّة بدأتْ بضخّ الأموال من أجل تأمين وصول الشباب الفلسطينيّ المتحمّس إلى الحدود مرّةً أخرى في ذكرى النكسة (٢٠١١/٦/٥). وعملت المخابراتُ السوريّة هذه المرّة على توزيع الفلسطينيّين على نقطتين حدوديّتين كي لا يشكّل تجمّعُهم واندفاعُهم إخلالًا بالمعادلة القائمة مع الإسرائيليّين، الذين حذّروا بشدّةٍ من الاقتراب من «حدودهم.» لكنّ عدد الشهداء كان كبيرًا هذه المرّة، حيث وصل إلى حوالى أربعة وعشرين. وفي تشييع هؤلاء الشهداء في مخيّم اليرموك، حدث ما لم يكن في الحسبان: فقد اندفع الآلاف من الفلسطينيّين إلى مهاجمة مقرّ الجبهة الشعبيّة ـ القيادة العامّة، المعروف بـ «الخالصة»، لأنهم حمّلوها مسؤوليّة المذبحة، وكانوا يؤمنون أنّ ما جرى لعبة استخباراتيّة بغيضة. إلا أنّ توق الفلسطينيّين إلى بلادهم، فاق نصائح الجميع وتحذيراتهم. وعندما قتل عناصرُ القيادة العامّة فلسطينيّين (وردّ المهاجمون بقتل حارسيْن من القيادة العامّة) اتضحت الصورةُ للجميع، وانجلت الصورةُ لدى معظم أبناء الشعب السوريّ. ههنا صار الفلسطينيّ «سوريًّا» ويحقّ له أن يدلي برأيه، بعد أن كان المعارضون والمؤيّدون للنظام السوريّ يطالبونه بالتزام الصمت لكونه فلسطينيًّا. وهنا بدأ السوريّون يميّزون بين التنظيمات الفلسطينيّة، ولاسيّما مع بدء حركة حماس الإعلانَ عن تأييدها للثوّار السوريّين.

الحدث الثالث: ردُّ الفلسطينيين ديْنَ اللجوء إلى السوريين. فقد وَجد السوريّون النازحون من مناطقَ اندلعتْ فيها أعمالُ القتال، مكانًا لالتقاط الأنفاس في المخيّمات الفلسطينيّة. وهناك شكّل الفلسطينيون لجانًا إغاثيّة وقاموا بواجب احتضانهم. فمخيّما اليرموك وخان الشّيح استضافا من العائلات السوريّة في منازلهم ومدارسهم ما يفوق عددَ اللاجئين في إحدى الدول المجاورة لسوريا. وبينما تبرّمتْ دولُ الجوار من هؤلاء اللاجئين، عمل أبناءُ المخيّمات الفلسطينيّة

بسعادة وحبّ بالغبْن، ولم يضيقوا ذرعًا بالعائلات الفقيرة، رغم الأعباء الماديّة الكبيرة التي لحقتْ بهم (وكانوا يرزحون تحتها أصلًا)؛ فمن المؤكّد أنّهم يعرفون، أكثرَ من غيرهم، معنى الضياع وفقدان المأوى وهجرة المنازل عنوةً. وعليه، يمكن القولُ بلا تردد إنّ الفلسطينيّ نجح بجدارة في امتحان الإنسانيّة.

الحدث الرابع: زجّ جيش التحرير الفلسطينيّ في مناطق التوتّر والصراع العسكريّ الدائر في سوريا. فقد تمّ نقلُ قطعاتٍ من جيش التحرير إلى مناطق شديدة السخونة، وأُجبر بعضُ أفراده على التوقيع على وثائق يتعهّدون فيها بحماية منشآتٍ حيويّةٍ سوريّة. هنا أصبحتْ شرائحُ جديدةٌ من الفلسطينيّين معنيّةً أكثر بنصرة ثورة الشعب السوريّ؛ فالخدمة العسكريّة إجباريّة للفلسطينيّين السوريّين، وهذا يعني أنّ معظم العائلات الفلسطينيّة لها أبناء نُقلوا إلى مربّعات الموت، حيث يمكن أن يصطدموا بما يسمّى «الجيش السوريّ الحرّ» الذي اتّبع نهجَ مهاجمة المقرّات والمنشآت التابعة للجيش السوريّ. وقد حاول بعضُ الناشطين الفلسطينيّين إقامة مواثيق مع «الجيش السوريّ الحرّ» كي لا يقوم بمهاجمة الشباب الفلسطينيّ الذي أُخِذ رغمًا عنه إلى تلك الأماكن، وصار الفلسطينيّون السوريّون ممّن لديهم أبناء يؤدّون الخدمة الإلزاميّة بين نارين: أبنائهم، وانحيازاتهم السياسيّة.

❖ ❖ ❖

سهرات وجلسات نقاش كثيرة في مخيّمات عديدة لم تصل إلى نتيجة حتى الآن؛ فمستقبل الفلسطينيّين في سوريا مازال مجهولًا، وذلك في ظلّ غياب كامل للأحزاب والقوى الفلسطينيّة التقليديّة، وتواني السلطة الفلسطينيّة عن ضمان أمن من يُفترض أن يكونوا «رعاياها.» والمفارقة أنّ هذا المستقبل المجهول لن يتأخّر كثيرًا في الوصول. وهكذا يقف فلسطينيّو سوريا في هذه المرحلة من وجودهم محرجين أمام أنفسهم، إذ إنهم باتوا على قناعة تامّة بأنّهم متروكون في العراء.

دمشق